جامعة بنغازي
كلية التربية – المرج
ISSN 2518-5845
المجلة الليبية العالمية

University of Benghazi
Faculty of Education Al Marj

Global Libyan Journal

العدد الثالث والسبعون /ابريل 2026م

تجليّات التراث الصوفي وأثرها في تشكيل الحدث الروائي
عند أحمد إبراهيم الفقيه شخصيّة الوليّ الصالح أنموذجًا

المصري منصور فضل الله المصري
قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الأبيار ، جامعة بنغازي، ليبيا
almasrimansor@yahoo.com

Manifestations of Sufi Heritage and Their Impact on the Formation of the Novelistic Event in the Works of Ahmad Ibrahim al-Faqih:The Character of the Righteous Saint as a Model

AL-Masri Mansour Fadlallah Al-Masri
Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Sciences, Al-Abyar . University of Benghazi

الملخص:

لقد كان للتصوّف أثر بارز في تشكيل الرواية التجريبيّة العربيّة، خاصة عند جيل السبعينيّات، الذين دفعتهم نكبة سنة (1967م) إلى خلق عوالم غرائبيّة وعجائبيّة في رواياتهم (رحال، 2014-2015، 145)، حيث تجلّى هذا الأثر في نصوصهم الأدبيّة، التي صدروا فيها عن شعور دينيٍّ كان سائدًا في أغلب البلاد الإسلاميّة والعربيّة، تمثّل في الاعتقاد المبالغ فيه في كرامات الأولياء، وقدراتهم الخارقة، سواءً أكانوا أحياءً، أم أمواتًا، وهي كرامات تتفوّق- في بعض الأحيان- على معجزات الأنبياء أنفسهم، وهو شعور رسّخه ما انطبع في الذاكرة الشعبيّة عن أولئك الأولياء، من زهدهم، وتقواهم، وورعهم، وصلاحهم، واشتغالهم بالعبادات، وعمّقه ما عُرف عنهم من عزلة، وتفرّغ للذكر، والتبتّل في أماكن نائية، لا يعرف الناس كيف يأكل الوليّ فيها، أو يشرب، وعزّزته الأميّة، والجهل، اللذان كانا سائدين، بسبب حقب الاستعمار المتعاقبة، حيث كان الاعتقاد السائد عند عوامّ النّاس أنّ هؤلاء الأولياء لهم القدرة على النفع والضرّ، فالوليّ في القرية، أو البلدة التي يعيش فيها، أو يقع فيها ضريحه، هو الواسطة بين الناس وربّهم، وهو صاحب الشفاعة، والمنقذ لهم في الدنيا والآخرة، فببركاته تُشفى أمراضهم، وتفرج كرباتهم، وبتوسّلاته تمطر السماء إذا أمحلت، وتنجب النساء إذا عقمت.

تسعى هذه الدراسة إلى تتبّع تجليّات التراث الصوفيّ في مجموعة مختارة من الأعمال الروائيّة للكاتب الليبيّ الراحل أحمد إبراهيم الفقيه؛ لبيان مدى تأثّره بذلك التراث، عبر توظيفه لشخصيّة الوليّ الصالح، والوقوف على مدى تأثير هذه الشخصيّة في سيرورة الحدث الروائيّ الذي وظّفت فيه.

الكلمات المفتاحية:(التراث الصوفيّ – شخصيّة الوليّ –كرامات الأولياء – أحمد إبراهيم الفقيه – الحدث الروائيّ)

abstract:

Sufism has exerted a significant influence on the formation of the Arabic experimental novel, particularly among the generation of the 1970s, who, in the aftermath of the 1967 defeat, were impelled to construct strange and fantastical fictional worlds. This influence is evident in their literary texts, which are grounded in a religious sensibility that prevailed across much of the Islamic and Arab world. Such sensibility was manifested in an excessive belief in the miracles (karāmāt) attributed to saints (awliyāʾ) and in their supernatural capacities—whether living or deceased—capacities that were at times perceived as surpassing even the miracles of the prophets. This outlook was consolidated by representations of these saints embedded in popular memory, emphasizing their asceticism, piety, scrupulous devotion, moral rectitude, and commitment to religious worship. It was further reinforced by their reputed seclusion, dedication to the remembrance of God (dhikr), and ascetic retreat in remote locations where the practical conditions of their subsistence remained unknown to the public. Moreover, this perception was strengthened by the widespread illiteracy and ignorance that prevailed as a consequence of successive periods of colonial rule, during which a common popular conviction held that such saints possessed the power to confer benefit or inflict harm. Within this framework, the saint residing in a village or town—or whose shrine was located there—functions as an mediator between the community and the divine, serving as an intercessor and savior in both worldly life and the hereafter: through his blessings illnesses are cured and afflictions alleviated; through his intercession rain descends in times of drought, and barren women are enabled to conceive.

This study seeks to trace the manifestations of Sufi heritage in a selected corpus of novels by the late Libyan writer Ahmad Ibrahim al-Faqih, with the aim of elucidating the extent to which his narrative practice is shaped by that heritage through the deployment of the character of the righteous saint (walī ṣāliḥ), and of examining the impact of this character on the development of the novelistic action in which it is embedded.

Keywords:(Sufi heritage – the personality of the saint – the miracles of the saints – Ahmed Ibrahim al-Faqih – the narrative event)

المقدّمة:

لم يكن التراث الصوفيّ الإسلاميّ موضوعًا دينيًّا وروحيًّا مجرّدًا، بل شكّل عبر العصور مصدرًا غنيّا للإبداع الأدبيّ والفنّي العربيّ، فقد مثّل رافدًا حضاريًا وثقافيًا غنيًا، ترك بصماته الواضحة في مختلف جوانب الحياة العربيّة والإسلاميّة، ومنها الأدب، حيث استثمره الشعراء والكتّاب والفنّانون عبر العصور الإسلاميّة، وقد شهدت الرواية العربيّة المعاصرة انفتاحًا ملحوظًا على هذا التراث، مستلهمةً منه شخصيّاتها وأحداثها ورموزها، وموظّفةً إيّاه في بناء عوالمها السرديّة.

لقد شكّل تمثّل التجربة الصوفيّة في الأدب الروائيّ العربيّ الحديث مظهرًا من مظاهر حداثة الرواية العربيّة، حيث انجذب كثير من الروائيّين العرب إلى هذا الموروث، يغترفون من معينه، ويوظّفونه لأغراض فنّية، أو فكريّة واعتقاديّة، حيث يحضر المعجم الصوفيّ، من خلال استلهام المفاهيم الصوفيّة، ومحاولة تحميلها دلالات ومضامين جديدة، ليتجاوز حضور هذا التراث مجرّد الخلفيّة الرمزيّة الداعمة للصنعة الروائيّة، ليصبح عنصرًا فاعلاً، يصوغ مسارات السرد، ويحدّد مواقف الشخصيّات، متخذًا دورًا مركزيًّا في بناء الحبكة.

يعدّ الراحل أحمد إبراهيم الفقيه، واحدًا من أبرز الروائيّين العرب الذين تمثّلوا هذا التراث، حيث حضرت التجربة الصوفيّة في أدبه الروائيّ بصور متنوّعة، حتّى لا يكاد يخلو عمل من أعماله الروائيّة من توظيف هذا الموروث الزاخر، ومن صور هذا الحضور توظيفه لشخصيّة الوليّ الصالح، المفعمة بالبركات، التي تمثّل أعلى درجات صفاء النّفس، ونقاء الروح، حيث تُجسِّدُ القيم الروحيّة، والمبادئ الأخلاقيّة، التي ترسم طريق التصوّف، عبر إبرازها بوصفها شخصيّة مساعدة لأبطال رواياته، من خلال الكرامات القائمة على المكاشفات والخوارق، التي تجري على أيدي هؤلاء الصالحين، التي لعبت غالبًا دور النبوءة، التي تقود الأحداث.

وفي هذا السياق، تبرز شخصيّة الوليّ الصالح في أعمال الفقيه الروائيّة، باعتبارها أنموذجًا فاعلاً ومؤثّرًا، لما تحمله من أبعاد روحيّة واجتماعيّة وفكريّة، تتجاوز حدود الواقع الماديّ، وتتغلغل في نسيج السرد الروائيّ؛ لتشكيل الحدث، وتوجيه مساراته.

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليّات التراث الصوفيّ في بعض نصوص الفقيه الروائيّة، محاولة إبراز أثر شخصيّة الوليّ الصالح في بناء الحدث الروائيّ وتطوّره، وستتّخذ الدراسة نماذج مختارة مجالًا تطبيقيًا، لما تتميّز به أعماله من حضور لافت للعناصر الصوفيّة والشخصيّات الروحيّة.

إشكاليّة الدراسة:

تنطلق هذه الدراسة من إشكاليّة رئيسة، تتمثّل في الاستفهام عن كيفيّة تجلّي عناصر التراث الصوفيّ، في روايات أحمد إبراهيم الفقيه، من خلال شخصيّة الوليّ الصّالح، وأثرها في تشكيل الحدث الروائيّ وبنائه الفنّيّ، ويتفرّع عن هذه الإشكاليّة الأسئلة الفرعيّة الآتية:

- ما ملامح التراث الصوفيّ الموظَّفة في بناء شخصيّة الوليّ الصالح؟
- هل تُقدَّم هذه الشخصيّة بوصفها فاعلاً سرديًّا، أم مجرّد رمزٍ ثقافيٍّ وروحيٍّ؟
- كيف يؤثّر حضور الوليّ الصالح في تطوّر الحدث، ومسارات الشخصيّات الأخرى؟

- إلى أيّ مدىً يتحوّل التراث الصوفيّ من خلفيّة ثقافيّة، إلى آليّة بنائيّة داخل النصّ الروائيّ؟

أهميّة الدراسة:

تكتسب هذه الدراسة أهميّتها من عدة جوانب:

أولاً: الأهميّة العلميّة:

تسهم الدّراسة في إثراء المكتبة النقديّة العربيّة بدراسة متخصّصة، تتناول العلاقة بين التّراث الصّوفيّ والرواية، مع التركيز على جانب مهمٍ، وهو شخصيّة الوليّ الصّالح.

ثانيًا: الأهميّة التطبيقيّة:

تقدّم الدّراسة أنموذجًا تحليليًّا لتناول تجليّات التّراث الصوفيّ في أعمال روائيّة محدّدة، ممّا يفتح آفاقًا لدراسات أخرى في هذا المجال.

ثالثًا: الأهميّة الثقافيّة:

تسلّط الدّراسة الضوء على قيمة التّراث الصوفيّ باعتباره رافدًا إبداعيًّا للأدب، وتبرز دوره في تشكيل الوعيّ الثقافيّ والجماليّ.

أهداف الدراسة:

تروم في هذه الدراسة البحث في كيفيّة توظيف الفقيه للتراث الصوفيّ في أعماله الروائيّة، من خلال معالجته لشخصيّة الوليّ الصالح، للوقوف على بيان مدى أثر التراث الصوفيّ في تشكيّل تصوّره لتلك الشخصيّة، وطريقة توظيفه لها في نصوصه، ومن ثمّ الوقوف على تأثير هذه الشخصيّة في سيرورة الأحداث الروائيّة في النصوص التي وظّفت فيها؛ بغية تعميق فهمنا للعلاقة بين الأدب وبين هذا التراث، كما تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- تحديد أبرز تجليّات التراث الصوفيّ في روايات الفقيه.
- تحليل بناء شخصيّة الوليّ الصّالح في الروايات المختارة، والكشف عن أبعادها الفنّيّة والدلاليّة.
- تبيان أثر شخصيّة الوليّ الصّالح في تشكيل الحدث الروائيّ وتطوّره.
- الكشف عن الدلالات الرمزيّة والفكريّة التي يضيفها التوظيف الصوفيّ لشخصيّة الوليّ الصّالح إلى الرواية.
- الإسهام في إثراء الدراسات السرديّة التي تتناول التداخل بين التراث والتخييل الروائيّ.

فرضيّات البحث:

يقوم البحث على جملة من الفرضيّات النظريّة، أهمّها:

- أنّ شخصية الوليّ الصالح ليست عنصرًا زخرفيًّا، بل تُؤدّي دورًا بنيويًّا في تشكيل الحدث الروائي.
- أنّ التّراث الصّوفيّ يُعاد إنتاجه سرديًّا بما يخدم الرؤية الفنيّة للروائيّ.
- أنّ حضور الوليّ الصّالح يُسهم في إعادة توجيه الزمن الروائيّ والعلاقة السببيّة للأحداث.

الدراسات السابقة:

توجد العديد من الدّراسات التي تناولت التّراث الصوفيّ في الرواية العربيّة بشكل عامٍ، وكذلك دراسات عن تحليل شخصيّة الوليّ الصالح، ومع ذلك، فإنّ هذه الدراسة تتميّز بتركيزها على أثر شخصيّة الوليّ الصّالح- تحديدًا- في تشكيل الحدث الروائيّ عند روائيٍّ معيّن، ممّا يمثّل إضافة نوعيّة في هذا المجال، ومن أبرز هذه الدراسات ما يأتي:

1. دراسة آسية متلف، (التجريب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة أبعاده وتجلياته)، مجلة التعليمية، جامعة جيلالي اليابس، الجزائر، العدد العاشر، المجلد الرابع، مارس (2017)؛ وقد تناولت الباحثة حضور الخطاب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة، مبيّنةً علاقته بالتجريب السردي وآليات توظيفه الجمالي، كما عرضت بعض مظاهر هذا الحضور، من خلال تحليل رواية (الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزّكي) للروائي (الطاهر وطار)، مع إبراز تقنيات مثل: (الرمز، والتناص، واللغة الصوفية، والحلم)؛ وقد أسهمت الدراسة في توضيح الأبعاد الفكرية والجمالية للتجريب الصوفي في السرد الروائي، غير أنّها مالت إلى الطرح النظري العام، والتوسع المفاهيمي، على حساب التحليل التطبيقي المتعمق لبنية النص السردية، فضلًا عن اقتصارها على أنموذج روائي واحد، وهو ما حدّ من إمكان توسيع المقارنة وتعميق النتائج النقدية.

2. دراسة مولاي مخطار، (التجريب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة: ابن عربي في رواية الموت الصغير)، الملتقى الدولي: الرواية العربية الصوفية المعاصرة بين سردية التراث وتقنيات الحداثة، كليّة الآداب والفنون جامعة الشلف، الجزائر (2023)، حيث تناولت الدراسة رواية (موت صغير) للروائي (محمد حسن علوان)، منقّبة في حضور التجربة الصوفيّة في الخطاب الروائيّ، من خلال توظيف سيرة المتصوّف (محيي الدين بن عربي)، مبيّنةً دور المفاهيم والمصطلحات الصوفيّة في تشكيل الرؤية السرديّة للنص، وقد أسهمت الدراسة في إبراز علاقة الرواية المعاصرة بالتراث الصوفيّ، غير أنّ طغيان الجانب النظريّ، إلى جانب الاقتصار على أنموذج روائيّ واحد، حدَّ من تعميق التحليل السرديّ، وتوسيع أفق المقارنة.

3. دراسة هشام فاروق رسلان، (تجليات الصوفية في رواية نقطة النور لبهاء نور)، مجلة أهل الصفة لدراسات التصوف وعلوم التراث، المجلد الثاني، العدد الثاني، (جمادى الآخرة 1447هـ، ديسمبر 2025)، حيث سعت الدراسة إلى الكشف عن حضور التراث الصوفيّ في الرواية العربيّة، من خلال تحليل رواية (نقطة النور) للروائي (بهاء طاهر)، وذلك برصد تجليّات التصوّف في عتبات الرواية مثل: (العنوان والإهداء والاستهلال والتنويه)، ثمّ تتبّع مظاهر هذا الحضور في بنية النصّ، عبر دراسة الشخصيّات، والأحداث، والفضاءات، اعتمادًا على المنهج الوصفيّ التحليليّ، وقد أسهمت الدراسة في إبراز بعض الدلالات النفسيّة المرتبطة

بهذه التجليّات، غير أنّ اقتصارها على رواية واحدة، إلى جانب التوسّع النسبيّ في التمهيد النظريّ، حدّ من إمكان توسيع المقارنة، وتعميق التحليل التأويليّ، ومع ذلك، تظلّ الدراسة إسهامًا مهمًّا في إبراز حضور المرجعيّة الصوفيّة في الخطاب الروائيّ العربيّ.

يتّضح من خلال استعراض الدراسات السابقة أنّها اهتمّت ببحث حضور الخطاب الصوفي في الرواية العربية المعاصرة، وكشفت عن بعض مظاهر توظيف هذا التراث، وتقنياته اللغويّة والدلاليّة داخل المتن الروائيّ، وغالبًا ما انصرفت إلى تحليل نماذج روائيّة مفردة، أو إلى تناول التجربة الصوفيّة بوصفها مكوّنًا دلاليًا، أو جماليًا في النصّ السرديّ، أمّا الدراسة الحالية فتسعى إلى مقاربة الموضوع من زاوية مختلفة، إذ تتجه إلى تتبّع تجليات التراث الصوفيّ في عدد من روايات روائيّ واحد، مع التركيز على توظيف شخصيّة الوليّ الصالح، ودورها في تشكيل الحدث الروائيّ، وتوجيه مساراته الدلاليّة، ومن ثَمّ فإنّ هذه الدراسة لا تكتفي برصد حضور المرجعيّة الصوفيّة في الخطاب الروائيّ، بل تحاول الكشف عن وظيفتها السرديّة في بناء الحدث، وتشكيل الرؤية الفنيّة للنصّ، بما يتيح قراءة أكثر عمقًا لآليات استثمار التراث الصوفيّ داخل التجربة الروائيّة المدروسة.

مادّة البحث وحدوده:

تتكوّن مادّة البحث، وترتسم حدوده في الآتي:

- المتون الروائيّة: وهي مجموعة من الروايات المختارة للروائيّ محلّ الدّراسة.
- الحدود الموضوعيّة: وهي شخصيّة الوليّ الصّالح بوصفها فاعلًا في تشكيل الحدث.
- الحدود المنهجيّة: تقوم على التّركيز على الوظيفة السرديّة، وليس التتبّع التاريخيّ للتّراث الصوفيّ.

منهج البحث:

ستعتمد الدراسة المنهج الوصفيّ التحليليّ، الذي يقوم على وصف الظواهر الأدبيّة وتحليلها وتفسيرها، لرصد تجلّيات التراث الصوفيّ في النصوص المختارة، كما ستستفيد من أدوات المنهج البنيويّ في تحليل بنية الشخصيّة الروائيّة وعلاقتها بالحدث، وأنماط التحوّل، ومن المنهج الموضوعاتيّ في تتبّع تجليّات التّراث الصوفيّ وموضوعاته في الروايات المختارة، مع الاستئناس بالمنهج الثقافيّ التأويليّ عند الحاجة لتفسير الدلالات الرمزيّة للتوظيف.

المبحث الأوّل:

مفهوم التّراث الصوفيّ وتمثيلاته:

التراث بمعناه العام مصطلح يطلق عمومًا على "المبادلة التناوليّة بين الأجيال المتلاحقة ولكن دون أن يُشترط لمعناه العمق التاريخي" (رمضان، 2002، 12)، وهو بهذا المعنى مصطلح واسع الدلالة، يشمل كلّ ما يتعلّق بالفنون، والعادات، والتقاليد، والأفكار، والمعتقدات، والمعارف، والسلوك بوجه عام، والموضوعات المرتبطة بالفنون الماديّة المتمثّلة في المحسوسات المخلّفة عن الأجيال الماضية، أو أيّ عناصر ماديّة حياتيّة أخرى، ولا يختلف المعنى الاصطلاحي للتراث كثيرًا عن المعنى اللغويّ، إذ يدلّ على

انتقال شيءٍ ما عبر الزمن، ويعرّف التراث اصطلاحًا بأنّه: "كلّ ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة" (عبدالله د.ت)، ويلاحظ أنّ كلمة تراث تطلق ويُراد بها الوصف اللاحق بها، فيقال على سبيل المثال: تراث عربي، أو تراث إسلاميّ، أو تراث إنسانيّ.

وإذا كان التراث يمثّل وعاء للهويّة والخصوصيّة الحضاريّة للأمّة، فإنّ التراث الصوفيّ يمتاز بكونه تراثًا مركّبًا، يحتوي عناصر ماديّة وأخرى معنويّة، شكّلت معًا الوجدان الصوفيّ علميًّا وتنظيميًّا وعمرانيًّا، من خلال ما اختصّ به من جوانب سلوكيّة، وروحيّة، وما أبدعه أهله من طرائق كانت بمثابة مدارس، عُنيت بتربية النّفوس وتزكيتها، واتّخذت لها أماكن مخصوصة، عرفت باسم الزوايا، أو التكايا، وقد كان لهذا التراث حضورٌ قويٌّ في الثّقافة، والذاكرة المدوّنة والشفويّة، بحيث تبّنته النّخب، وسائر الجمهور، ومن ثمّ فالتراث الصوفي يشمل "كل ما دونه الصوفية بخصوص علومهم شعرا ونثرا، سواء ما تعلق منها بالسير والسلوك، والأحوال والمقامات، أو ما اشتمل على أنظار في الوجود والمعرفة، أو ما اتصل بقضايا المحبة، أو ما كان تسجيلا لمناقب طبقاتهم، أو أوراد و أدعية طرقهم" (غازي 2014)، ومن أبرز تمثّلات هذا التراث التي دأب الأدباء على توظيفها بشكل مستفيض، شخصيّة الوليّ الصّالح، ومفهوم التجلّي الإلهيّ.

الوليّ الصّالح:

الوليّ في اللغة هو القريب، والمحبُّ والناصر، ومن أسمائه عزّ وجل الوليُّ (ابن منظور، 1999، 15/400-401)، والولي عند عامّة المسلمين هو كلّ مسلم تطهّرت روحه عن أدران الدنيا، وتعلّق قلبه بربّه، وأخلص سريرته له، فكان عند الله مكرمًا، وهو عند الصوفيّة وصف خاصٌّ بمن وصل بعد المجاهدة والمكابدة إلى مرحلة من القرب الإلهيّ، جعلته يختصّ بحفظ الله له، وتمكينه من الخوارق، ممّا لا يجري إلاّ على يديه، وقد تطوّر مفهوم الوليّ في الفكر الصوفيّ متأثرًا بمعتقدات الشيعة في أئمتهم المعصومين، حتّى صار للولاية شروطها الخاصّة، وللأولياء صفاتهم المميّزة، ومن أبرز صفات الوليّ الصوفي (عفيفي، 2020، 251-265):

1. الفناء في الله؛ فالوليّ الصوفيّ، لا يرى لنفسه وجودًا أمام وجود الله.
2. العلم اللدنيّ؛ فالوليّ عند الصوفيّة، هو من وصل إلى مرحلة من الفناء في الله، جعلته يتلقّى العلم مباشرة عن ربّه، بلا واسطة، من خلال الإلهام والكشف.
3. الكرامة؛ فالوليّ عند الصوفيّة، تأتي على يديه الخوارق، وهي الدليل الماديُّ على ولايته.
4. الحفظ؛ فالوليّ عند الصوفيّة محفوظ من الوقوع في الزلل، أو ارتكاب المعاصي.

ووفق هذه الصفات، وظّف كثير من الأدباء شخصيّة الوليّ الصالح في أعمالهم الأدبيّة، بوصفها شخصيّة، تضفي على النصّ الأدبيّ بعدًا عجائبيًّا، بما تمنحه للسرد من روحانيّة مشبعة بالخيال الصوفيّ، وهي غالبًا شخصيّة مرشدة وموجّهة، تكسر أفق انتظار القارئ، من خلال الكرامة الحسيّة، التي تتجلّى في الخوارق التي تجري على يديها، ما يشدّ انتباه القارئ، ويشبع نهمته إلى التمرّد على الواقع. (عبدالرشيد، 2017-2018، 270-272).

التجلّي الصوفي:

التجلّي في اللغة يحمل معنى وضوح الأمر، وجلاؤه، والإظهار؛ والتجلّي نقيض التخفّي، وجلاء الشيء بمعنى كشفه، وتجلّى الشيءُ؛ أي تكشّف (ابن منظور، 1999، 343/2).

يعدّ التجلّي عند الصوفيّة من الموضوعات التي تتخلل التجربة الروحيّة، وهي تلك الفيوضات التي تنثال على قلب الصوفيّ، ولا تستوعبها اللغة الطبيعيّة، ويعلل الصُوفيّون ذلك بأنَّ مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق؛ بل تُعلم بالمنازلات والمواجيد، وهي معارف تجسّد حالة الصوفيّ الشعوريّة الوجدانيّة في مقام نهائيّ، بعد عبوره لأحوال ومقامات؛ على أنَّ ما يميّز مفهوم الصوفيّة للتجلّي هو قولهم: "أنَّ الوجود هو تمظهر الصفات والأسماء الإلهية". (السعدي، 2024، 264-266).

فالتجلّي عند المتصوّفة هو "رفع حجبة البشرية" (الكلاباذي، 2003، 266)، ومعنى رفع حجبة البشريّة أن يقيم الله المتصوّف تحت موارد ما يبدو من الغيب؛ لأنّ البشريّة لا تستطيع مقاومة أحوال الغيب، فلا بدّ من أن يصاحب التجلّي استتار الأشياء الماديّة عن المتصوّف فلا يراها، والخلاصة أنّ التجلّي عندهم هو ما ينكشف لقلب الصوفيّ من أنوار الغيب.

المبحث الثاني:

أثر التكوين الصوفي في المخيال السردي عند أحمد إبراهيم الفقيه

ينقل سعيد بنكراد عن فيليب هامون قوله: "إذا أخذنا بعين الاعتبار بعض الصفات الدالة على الوظائف الاجتماعية (العامل- الفلاح- الشرطي- الطبيب...) لاحظنا أنّ الشخصيات المحدّدة من خلال هذه الصفات تملك- بشكل قبلي- حمولة دلالية محتملة، إنها تحيل على معنى ممتلئ وثابت داخل نص الثقافة، كما تحيل على أدوار وبرامج واستعمالات مسكوكة... إنّ انضوائها داخل ملفوظ ما، يجعل منها نقطة إرساء مرجعية تحيل على النص الكبير للإيديولوجيا" (بنكراد 2003، 108).

يُعدّ التكوين الروحي والثقافي لأي كاتب من العوامل المؤثرة في تشكيل مخيلته الإبداعية، إذ تتداخل التجارب الحياتية مع المرجعيات الفكرية والروحية؛ لتنتج رؤية خاصة للعالم، تتجلّى في العمل الأدبي، ومن بين المرجعيّات التي تركت أثرًا واضحًا في الأدب العربيّ الحديث المرجعية الصوفية، بما تحمله من نزوع تأمليّ، ورؤية رمزية للوجود، واهتمام بالبعد الباطني للإنسان، وفي هذا السياق يمكن النظر إلى بعض ملامح التجربة السردية عند أحمد إبراهيم الفقيه بوصفها متأثرة بدرجات متفاوتة بمناخ روحيٍ قريب من الحسّ الصوفيّ، وهو ما يظهر في طبيعة المخيال الذي تتأسّس عليه عوالمه الروائية، وفي حضور مفاهيم مثل الرحلة، والبحث عن الحقيقة، والمدينة المثالية، والصراع الداخلي للذات.

ممّا لا يحتاج الباحث إلى كدّ الذهن فيه، أن يلاحظ أن العديد من أحداث روايات الفقيه، تجري في بيئة ثقافيّة مرجعيّة، تؤمن بمعجزات الأولياء الصالحين، ورجال الله القادرين على تغيير حياة الناس، وشفاء أمراضهم بمجرّد تلاوة الأوراد والتعاويذ، وتعجّ تلك الروايات بشخصيّات الدراويش الهائمين، الذين يتجوّلون في عوالم الأسياد الخفيّين، حيث تؤدّي شخصيّات الأولياء دورها الدينيّ في معظم رواياته؛ لتعكس الشخصيّة الحقيقيّة للوليّ في الفكر الصوفيّ، الذي يتمتّع بذات السّمات والخصائص النفسيّة، التي يتمتّع بها الأولياء الصوفيّون، والذي يعتنق ذات الآراء الفكريّة التي يعتنقونها، وتجري على يديه الخوارق التي تجري على أيديهم، حيث

يظهر الوليّ الصالح، في صورة الشيخ التقيّ، الذي تنقّت روحه من الشوائب الدنيويّة، والذي كرّس حياته كلّها لربّه، والذي وصل إلى درجة من الاتّحاد، جعلته بطلًا خارقًا، مؤيّدًا بالآيات الربّانيّة، بما يمتلكه من قدرة على إجراء المعجزات، وخوارق العادات، ويشمل ذلك تجاوز حدود الزّمان والمكان، ونقل النّاس إلى عوالم أخرى، وإنقاذ حياتهم من الهلاك، بل إنّه قادر على تجلّي الغيب، ومعرفة ما يدور في أذهان الآخرين، والتنبؤ بما سيحدث لهم في المستقبل، (الفقيه 1991، 20) (2008، 47).

ولعلّ هذا الزحام الظاهر في توظيف الفقيه لهذه الشخصيّة في نصوصه الروائيّة، والتزامه بوصفها بذات الصفات التي هي عليها في البيئة الليبيّة الشعبيّة، المؤمنة بأولئك الرجال، هو ما جعل الناقد (فاروق منيب)، في مقال بعنوان (البحر لا ماء فيه) نُشر بصحيفة القاهرة المصريّة، يصف الفقيه بأنّه: "قاصّ عربيّ جديد، يعدنا بالكثير، لو اعتنى بميزاته الفنيّة، وطوّر تجاربه في الحياة، وابتعد في سرده عن بقايا أسلوب المبالغة، والتهويل، والشطحات، والرومانسية المفتعلة" (1966).

والحقّ أنّ منيب قد جانب الصواب في حكمه هذا، فهو يصف خيارات الفقيه الفنيّة بأنّها تحليق مبالغ فيه في عالم الخيال، وشطحات ورومانسية مصطنعة، ما جعله يحكم بأنّها عيب فنّي، يجب على الفقيه التخلّص منه؛ وكان الانصاف يقتضي أن ينظر منيب إلى هذه الظاهرة من خلال الواقع، ومن خلال جذورها الدينيّة العميقة، فقد حفل الفقيه بما حفل به الأدباء العرب عبر العصور، واستخدم ما استخدموه في إطار خياليّ؛ ذلك أنّ المبالغة والتهويل، ليست بالضرورة عيبًا فنيًّا في السرد القصصيّ التخييليّ، خاصّة ذلك النوع من الأعمال السرديّة التي توظّف الخطاب الصوفيّ؛ لأنّ طبيعة هذا الخطاب ذاته، أنّه خطاب قائم على الشطحات، التي تتجاوز العقل والمنطق؛ لذلك يحتاج السارد الذي يتبنّاه إلى لغة متطرّفة عاطفيًّا، لتلائم طبيعته الروحيّة، وهكذا تغدو المبالغة والتهويل وسيلة فنيّة، وميزة تخييليّة، ومنطق جوهريّ في تلك النصوص، التي توظّف ذلك الخطاب ضمن السياق العجائبيّ.

يتضح ممّا سبق أنّ التكوين الروحيّ للفقيه، الذي تشكّل في بيئة قريبة من الحسّ الصوفيّ، قد أسهم في إغناء المخيال السردي عنده، فانعكس في نزوعه التأمليّ، وفي توظيف الرموز الصوفيّة، وفي حضور شخصيّة الولي، بوصفها شخصيّة مساعدة، إضافة إلى التوتر بين المثال والواقع في صورة المدينة، وتعميق البعد النفسيّ للشخصيّات، ولا يُقصد باستحضار هذا البعد ردّ تجربة الفقيه إلى مصدر واحد، بل الكشف عن أحد الروافد التي أسهمت في تشكيل عالمه السردي.

المبحث الثالث:

الوليّ الصالح في التجربة الروائيّة للفقيه:

لقد تنوّعت شخصيّة الوليُّ الصالح باعتبارها شخصيّة ذات كرامات في أعمال الفقيه الروائيّة، وهي في العموم تقدّم باعتبارها شخصيّة قد حازت من التجليّات الإلهيّة ما كُشف لها به حجب الغيب، وصارت قادرة على إحداث أثر في مسار الأحداث، ومن أبرز هذه التجليّات:

الولي طبيب للأبدان والأرواح:

يظهر الولي الصالح في بعض الأعمال الروائيّة للفقيه بوصفه طبيبًا روحيًّا، يقوم بعلاج الأجساد والأرواح، بواسطة الأوراد والتعازيم والأدعية والرقى والتمائم، مع ما يقدّمه من نصائح وإرشادات تساعد المرضى على تجاوز مشاكلهم الروحيّة، وأمراضهم البدنيّة، فهو طبيبٌ روحيٌّ، يقصده الناس حيًّا ليتبرّكوا بدعائه لهم، أو ميّتاً ليتبرّكوا بمقامه الطاهر، ومن نماذج هذه الشخصيّة، ما عرضه الفقيه في روايته (هذه تخوم مملكتي)، الجزء الثاني من ثلاثيّته الشهيرة، حيث ينهض الشيخ (الصادق أبو الخيرات) بمهمّة علاج البطل من أمراضه النفسيّة، التي كادت تودي به إلى الانتحار، وقد مهّد السارد لظهور هذه الشخصيّة على مسرح أحداث الرواية بما قدّمه على لسان البطل (خليل الإمام)، الذي وصف الشيخ بأنّه فقيه صاحب كرامات، يكتب الأحجبة، ويطرد الجنّ، ويعالج النساء العقيمات، وهي مواصفات وليٍّ صوفيٍّ بامتياز (الفقيه 2008، 18-19).

وبالفعل يضطلع الشيخ بمهمّة علاج البطل عبر رحلة في عالم ألف ليلة وليلة، تنطلق من مقام الشيخ، وتسير بهدايته، يلتقي البطل فيها بأناس من عوالم أخرى، ويرى مناظر، ويعيش أحداثًا، يعود بعدها إلى عالم الواقع وقد شُفي من كلّ ما كان يعانيه من وساوس وهموم، وهو مقتنع تمامًا أنّ شفاءه ما كان ليتمّ لولا تدخّل الشيخ الصالح.

ومثاله ما قام به الشيخ (مولاي الصافي)، القادم من بلاد المغرب الأقصى، الذي عالج امرأة من قبيلة المقاطيع، كانت تعاني من المرض؛ بسبب تلبّس الجنّي بها، ويصف الراوي ما وقع في جلسة المعالجة، من قراءة للأوراد والتعازيم، ومن ضرب للمرأة بقصد إيذاء الجنّ، الذي استسلم أخيرًا للشيخ، وراح يقصّ على الشيخ والحاضرين قصصًا عن بلدان وممالك، ويذكر أسماء ملوك ما كان لامرأة بدويّة عاشت حياتها كلّها في قلب الصحراء أن تعرف عنها شيئًا (الفقيه، 2008، 129-130)، ونظيره ما قام به الوليّ الصالح (سيدي البلبال)، الذي عالج مرض زوجة المارشال بالبو(الفقيه، 2008، 47).

كما يظهر الوليّ الصالح طبيبًا يُذهب الأذى عن الناس بمجرّد أن يمسح بيده على المبتلى، فيذهب ما به من بأس، كما فعل ذلك الولي الصالح من بلدة (القنطارة) الذي خرج يبحث عن أرض نائية، لا يصل إليها بشر، لينقطع فيها للعبادة والتأمّل، ووجد بقعة خالية إلاّ من حمامة، ألِفهَا ذلك الشيخ وألفته، فصار يناجيها بأوراده وتسابيحه، فإذا بالحمامة، تتحوّل إلى امرأة ذات حسن وجمال، بفعل كرامات ذلك الوليّ الصالح، الذي شفاها من السحر الأسود، الذي مسخها إلى حمامة، لتصبح فيما بعد زوجة له (الفقيه، 2000، 93-94).

الولي الصالح منقذ من الكوارث والأزمات:

ينبري الوليّ الصالح بوصفه شخصيّة ذات كرامات وخوارق، لينقذ الأفراد والجماعات من الكوارث والأزمات، حين يتدخّل في أحلك اللحظات لمواجهة الخطر الداهم، فمن خلال قدراته الخارقة، يتحكّم في مجريات الأحداث، ويقدّم العون في الوقت المناسب، فبدعائه تحلّ البركة، وتحدث المعجزة، وتنبت الزروع من جديد بعد حصادها، حتّى يشبع الجياع (الفقيه، 2000، 37).

وعندما يتوه المسافرون في الصحراء القاحلة، ويقاربون على الهلاك بسبب العطش، تتجلّى كرامته في هداية القافلة إلى نبع الماء(الفقيه، 2008، 244-245).

وعندما تصبح القبيلة بلا مأوى، تهيم في الهيماء، ينبرى الوليّ الصالح ليهيئ لهم المكان للسكنى، فترضخ هوامُ الأرض ووحوشها لأوامره، وتخلي له المكان؛ ليتّخذه ومن معه سكنًا ووطنًا(الفقيه، 2008، 217-218).

والوليّ الصالح هو الحامي، الذي يذبّ ببركاته عن أهل قريته، فإذا رفعها عنهم نُكبوا بكلّ ما يسوؤهم، وهو المنتقم، الذي إذا غضب على الناس، حلّ عليهم سخطه ومقته، ووقعت لعنته على من خالفه، فلا رادّ لعقوبته إلاّ بأمره وعفوه(الفقيه، 2008، 23-24).

الولي مرشد روحي:

لعلّ من أبرز الأدوار التي تُناط بشخصيّة الوليّ الصالح في روايات الفقيه عمومًا، هو دور المرشد للشخصيّات، حيث يلجأ النّاس إلى الأولياء الصالحين، أو يتطوّع أولئك الأولياء بأنفسهم لإسداء النّصح، وتقديم الإرشاد، الذي يمكّن الشخصيّات من اتخاذ القرارات الصائبة، وتجاوز الأزمات، وتخطّي العقبات، ومن صور هذا الإرشاد والتوجيه، في رواية (حقول الرماد)، ما قام به الشيخ (نصرالدين) إمام مسجد قرية عين الغزال، وعالمها المبجّل، الرجل المشهود له بالكرامات والمكاشفات، الذي تجلّت إحدى كراماته في سؤاله لعامر اليتيم عن ابنته جميلة، ونصيحته المبطّنة له، بالتحذير بأنّ جميلة أمانة في عنقه، عليه أن يحافظ عليها (الفقيه، 1999، 45)، وهو تحذير أوّله السارد بأنّه دليلٌ على أنّ الشيخ قد كُشف له حجاب الغيب، فعلم أنّ مكروهًا ما سيقع في المستقبل لتلك المرأة, فبصيرة الأولياء مكّنته من التنبؤ بالخطر قبل وقوعه (الفقيه، 1999، 46).

وربّما تعدّى الإرشاد حدود النصح، ليتحوّل الوليّ إلى دليل يرشد الشخصيّة في رحلتها في عوالم الغيب، ومثاله ما قام به الوليّ الصالح الشيخ (الصادق أبو الخيرات)، صاحب القدرات الخارقة، فقد قام بنقل البطل خليل الإمام في رحلة خياليّة إلى عوالم عجائبيّة، وصفها السارد بأنّها أقرب إلى عوالم ألف ليلة وليلة، حيث تحرّر البطل فيها من قيود الزمان، الذي هو العصر الحديث، والمكان الذي هو مدينة طرابلس، وارتحل بهداية الولي الصالح وإرشاده في رحلة استغرقت سنة كاملة، التقي فيها البطل بعوالم غريبة، وتعرّف على شخصيّات، كالتي تحكي عنها الليالي، وعاش طقوسًا وساهم في صناعة أحداث (الفقيه، 1991).

وقد يتجاوز الوليّ الصالح حتّى دور الدليل، ليشارك بنفسه في رحلة البطل، حين يقود الوليّ الصالح الرحلة بنفسه، كما فعل الشيخ مولاي الصافي، الذي اصطحب معه البطل عثمان الحبشي في رحلة إلى مدينة الجن أسفل مدينة قرزة المهجورة (الفقيه، 2008، 158-163).

الوليّ الصالح رمز للحبّ والحكمة:

لما كانت شخصيّة الوليّ الصالح شخصيّة دينيّة، تنبع من روح الدين، وتجسّد تسامحه، كان الغالب إظهارها بوصفها رمزًا للخير، وأنموذجًا للحبّ الصافي، ومثالاً للحكمة، حيث يقدّم الوليّ الصالح بقوله وبفعله دروسًا قيّمة عن الخير، وعن الحياة، وعن القيم الأخلاقيّة، ما ينعكس إيجابًا في تشكيل مواقف الشخصيّات، وسيرورة الأحداث الروائيّة، ومن الشخصيّات التي اجتمع فيها الحبّ والحكمة الصوفية، شخصيّة الشيخ (الصادق أبو الخيرات)، في رواية (هذه تخوم مملكتي)، حيث انبرى الشيخ في أقصى درجات يأس البطل، وأشدّ مراحل مرضه؛ ليأخذ بيده في رحلة علاجيّة بدأت من ضريح ذلك الشيخ، وانتهت إليه، ليعود البطل

وقد شفي ممّا كان يعانيه من مرض نفسيّ، كاد يقوده إلى الجنون (الفقيه، 1991، 26)، ومثاله صنيع الشيخ (نصر الدين)، إمام مسجد قرية عين الغزال، الذي كان دائمًا يوصي عامر اليتيم بالمحافظة على ابنته جميلة، وينصحه بأنّها أمانة في عنقه، عليه أن يحافظ عليها (الفقيه، 1999، 45)، ونظيره ما كانت تكنّه قبيلة المقاطيع للولي الصالح (الشيخ صالح)، من حبّ، فهو الذي قام بجمع شراذم تلك القبيلة في ذلك المكان من الصحراء، الذي تحيط به الجبال العالية من كلّ جانب، وليس به إلاّ منفذً صغير، ونبعٌ للمياه يتفجّر بين تلك الصخور، وهو مكان هجرته القبائل الأخرى خوفًا ممّا فيه من غيلان، وتنّين ينفث النار، ما أثار رعب تلك القبائل، حتّى جاء هذا الرجل المبارك، ورفع يديه مبتهلا إلى الله، أن يخلي ذلك المكان له ولمن معه من أبناء تلك القبيلة؛ فاستجاب الله دعاءه، وخرجت تلك الكائنات بعيدًا عن تلك المنطقة، التي اتخذها ومن معه من المقاطيع موطنًا لهم (الفقيه، 2008، 217-218).

الولي الصالح المعلم الحكيم المطلع على الغيب:

يلعب الولي الصالح دور المعلم الحكيم، حيث تتجلّى كرامته في تعليم الشخصيّات دروسًا قيّمة عن الحياة، وعن القيم الأخلاقيّة، أو كيف يتصرّفون في المواقف التي ستقع لهم في المستقبل؛ هذا الدور الذي ينعكس إيجابًا في تشكيل الشخصيّات الروائيّة المصاحبة له، حيث تغيير مواقفها من الحياة؛ مثاله ما أخبر به الوليّ الصّالح (سيدي البلبال) مرافقه (عثمان الحبشي)، بأنّ (المارشال بالبو) سوف يلقى حتفه على يد جنوده الطليان، وليس على يد الليبيّين، ما جعل بطل الرواية- المؤمن بكرامات الشيخ، والمقتنع بصدق نبوءاته- يطمئنّ على سلامة المارشال من أنْ يصيبه أيُّ مكروهٍ أثناء مرافقته له، وهو يسير متخفيًّا في زيّ التاجر المغربيّ، أثناء جولته في المدينة القديمة (الفقيه، 2008، 164).

ومثاله تلك البشارة التي نقلتها (نوريّة) لعثمان الحبشي في سجنه عن المرأة الصالحة من أهل الفلاح، التي أنبأتها بأنّه سوف يخرج من سجنه قريبًا، وينطلق وراء الحدود، وأنّه سوف يعود من سفره هذا منتصرًا، ليتمكّن من استرجاع ما ضاع منه، هذه المكاشفة التي قادت الأجزاء التالية للراوية حتّى آخرها (الفقيه، 2008، 166)، وهي المكاشفة التي كان لها دور بارز في رسم مسار الأحداث الروائيّة فيما بعد، فقد هيّأت للأحداث اللاحقة، التي تمثّلت في سفر البطل إلى الحبشة، وخوضه الحرب هناك، ثم عودته بلقب الحبشي، وتحوّله إلى رجلٍ وطنيٍ، يكره الاستعمار، ويكافح لاسترجاع وطنيّته، وكرامته التي سُلبت منه.

كما إنّ الوليّ الصالح المطلع على الغيب، يكون قادرًا على معرفة من يطرق باب بيته، قبل أن يفتح له، فقد كان الشيخ (سيدي البلبال)، قادرًا على معرفة من يزوره قبل أن يفتح له الباب، فعندما مرضت زوجة المارشال (بالبو)، أرسلت بطل الرواية (عثمان الحبشي)؛ لإحضار الشيخ، فوجد البطل الشيخ في انتظاره مرتديًا جلبابه، وطاقيّته الأبيضين، شاكرًا له صنيعه؛ لأنّه جاء في وقته تمامًا، ما أثار دهشة البطل، الذي كان على يقين تامّ بأنّ زوجة المارشال، لم ترسل للشيخ خبرًا مسبقًا باحتياجها إليه، والشيخ لا يملك هاتفًا يهاتفها به، إلاّ هاتف الغيب، الذي يزوّده بتلك المعارف، والمعلومات، وهي خوارق لا يستطيعها إلاّ من كانت لديه تلك المعرفة المكتسبة عن طريق العلم اللدني (الفقيه، 2008، 222).

وفي العموم فقد لعبت شخصيّة الوليّ الصالح، بقدراتها الخارقة للطبيعة، دورًا بارزًا في خلق العوالم السحريّة التي أنشأها هؤلاء الرجال المباركون، بما ضمن للكاتب جذب انتباه القرّاء إلى رواياته، من خلال خلق أحداث غريبة وساحرة، بالاعتماد على القدرات الخارقة للطبيعة لهؤلاء الأولياء الصالحين .

النتائج:

يهدي استقراء النصوص الروائيّة التي وظف فيها الفقيه شخصيّة الوليّ الصالح إلى استنتاج أنّه كان مهتمًّا بتوظيف هذه الشخصيّة، متبنّيًا أسلوبًا سرديًّا متأثرًا بشكل كبير بالتراث الصوفيّ، ما يدلّ على إيمان عميق بمعجزات أولئك الصالحين، وتأثّرٍ كبير بموروثات شعبيّة، ترتبط أساسًا بالتقاليد الصوفيّة، وقد تجلّى هذا الاستخدام في صور متعدّدة، أمّا سردًا مباشرًا، أو حدثًا مفاجئًا يقلب موازين السرد، أو معجزة تتخطّى حدود الزمان والمكان الطبيعيّين، حيث تتحرّك الشخصيّات ضمن عوالم متخيّلة، أو تشارك في أحداث خارقة للطبيعة، تساهم فيها بشكل فعال.

وفي ضوء ما سبق يتجلّى تأثير شخصيّة الوليّ الصالح في تشكّل الأحداث الروائيّة بفعل الكرامة، بوصفها محرّكًا بنيويًّا للسرد، حيث يظهر هذا التأثير في تحريك السرد، أو تعطيله، فالولي الذي تجلّت له حجب الغيب، صار قادرًا من خلال كراماته على تغيير مسار القصّة من خلال مستويات أربعة هي:

1. مستوى التحفيز:

حيث يضطلع الوليّ بدور المحفّز، الذي يدفع البطل في اتجاه الخروج من حالة اليأس، ففي رواية (هذه تخوم مملكتي)، كان السرد متجهًا نحو النهاية، عندما قرّر البطل الانتحار، ولكنّ تدخّل الشيخ (الصادق أبو الخيرات)، أعاد تحريك السرد عبر الرحلة العلاجيّة، التي استغرقت سنة كاملة، فاتحًا آفاقًا قصصيّة جديدة، لم تكن ممكنة في الواقع الطبيعيّ.

2. التعطيل الزمني والمكاني:

لأنّ الوليّ الصالح، يمتلك القدرة على تعطيل قوانين الطبيعة والواقع لصالح عوالمه العجائبيّة، فهو قادر على أخذ البطل في رحلة عجائبيّة إلى عوالم ما وراء الطبيعة، كما حصل مع (عثمان الحبشي)، الذي دخل مع الوليّ الصالح (مولاي الصافي) إلى مدينة الجنّ، حيث تمّ تعطيل السرد الواقعيّ التقليديّ، ليحلّ محله سرد عجائبيّ، تتحرّر فيه الشخصيّة من قيود العصر الحديث، وتدخل مع دليلها الروحيّ في فضاءات ألف ليلة وليلة.

3. خلق أحداث موازية:

لم يكن الوليّ في روايات الفقيه مجرّد شخصيّة عابرة، بل هو في الحقيقة صانع أحداث، فهو الذي يهيئ مكان السكنى للقبيلة؛ لأنّ كراماته هي التي أخرجت الوحوش من الكهوف، فصارت الصحراء أمنة لقبيلة المقاطيع، وهو الذي يشفي المسحور؛ ممّا يعني أنّ وجود الوليّ يخلق العقدة، كما يساهم في حلّها ضمن نسيج الرواية.

ولما كانت الكرامة في نصوص الفقيه بهذه الأهميّة الفنيّة، والقدرة على خلق التحوّلات الحاسمة في مسار السرد، فإنّها تحوّلت إلى خارطة طريق للسرد، فعندما تنبأ الولي الصالح (سيدي البلبال)، بموت (المارشال بالبو)، وعندما تنبأت المرأة الصالحة بخروج

(عثمان الحبشي)، من سجنه، انتقلت الرواية من حالة الحيرة إلى حالة الاستشراف، وهكذا قادت النبوءات الأجزاء اللاحقة للاثني عشرية، ورسمت مسار الأحداث اللاحقة، التي تمثّلت في سفر (عثمان الحبشيّ) إلى الحبشة، وخوضه الحرب، والعودة باللقب.

4. الكرامة منقذ من التأزم السردي.

عندما يصل السرد إلى طريق مسدود، عبر حدوث كارثة، تتمثّل في عطش مهلك في الصحراء، أو تيه متلف للقبيلة، أو مرض يكاد يفتك بالبطل، تتدخّل الكرامة لتقلب موازين القوى، فبفضل الكرامة، تحوّلت الحمامة إلى امرأة، وانفجر الماء في الصحراء، ما ينقل الرواية من مشهد المأساة، إلى مشهد النجاة والخلاص.

ولا تقتصر الكرامة على إحداث التحوّل الماديّ فحسب، بل هي قادرة كذلك على إحداث تحوّل نفسيّ في بنية الشخصيّة، فبطل الثلاثيّة (خليل الإمام)، لم يشفَ جسديًّا فحسب، بل تحوّل فكريًّا ونفسيًّا بفضل كرامات الوليّ الصالح، ما غيّر مواقفه من الحياة والواقع.

وهكذا فإنّ الوليّ الصالح في أدب الفقيه هو ضابط الإيقاع، الذي يتحكّم في إيقاع السرد، والضامن لعدم خروج الأحداث عن النسق؛ فبكراماته يسرّع الروائيّ الأحداث، أو يبدلها، وبهدي بصيرته يمهّد للأحداث القادمة، ما جعل النصّ الروائيّ، يخرج من إطاره الواقعيّ الضيّق، إلى فضاء الواقعيّة السحريّة، المستمدّة من التراث الصوفيّ، وهو ما يؤكّد ما ذهبت إليه الدراسة قبلاً، من أنّ وصف هذا التوظيف بأنّه شطحات رومانسيّة مفتعلة فيه تجنٍّ كبير على التخييل الأدبيّ.

والخلاصة، إنّه من الواضح أنّ الفقيه، في توظيفه لشخصيّة الوليّ الصالح، يتماهى مع الفكر الصوفيّ، ويتوافق مع الاعتقاد الشعبيّ في قدرات الأولياء الخارقة للطبيعة، دون انتقاد، أو محاورة لتلك المعتقدات، بل يقدّمها باعتبارها حقائق مسلّمًا بها ضمن نسيجه الروائيّ، وقد حقّقت له هذه التقنية الغاية التي كان يرومها، من خلال اسباغ صفة العجائبيّة على عوالمه الروائيّة، وخلق متعة القراءة، التي تتحقّق من خلال كسر رتابة الواقع، وتنشيط الخيال، وتجاوز المألوف، وإثارة الفضول، وهكذا لم تكن شخصيّة الوليّ مجرّد شخصيّة عابرة في أحداثه الروائيّة، بل هي مرآة تجعل القارئ يبتعد عن الواقع، لا لينفصل عنه، بل ليفهمه بشكل أعمق.

المراجع:

1. بنكراد، سعيد، (2003)، *سيميولوجية الشخصيات السردية رواية الشراع والعاصفة لحنا مينا نموذجا*، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.

2. رمضان، علاء الدين، (رجب 1423- سبتمبر 2002)، *المأثورات الشعبية*، مجلة الشورى، (ع407).

3. السعدي، أمين أحمد عبد الله، (2024)، *التجلي الإلهي في المفهوم الصوفي أقسامه وآثاره*، مجلة الدراسات العقدية، المملكة السعودية، (ع33).

4. عبدالرشيد، هميسي، (2017-2018)، *حضور التصوّف في الخطاب الروائي العربي المعاصر بعض الروايات العربية أنموذجا*، [أطروحة دكتوراة]، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر.

5. عبدالله، يوسف محمد، *الحفاظ على الموروث الثقافي والحضاري وسبل تنميته*، الجمهورية اليمنية، المركز القومي للمعلومات، متاح على الرابط الإلكتروني:
https://yemennic.com/sectors/detail.php?ID=32319

6. عبدالواحد، رحال،(2014-2015م)، *التجريب في النصّ الروائي الجزائري*، [أطروحة دكتوراة]، جامعة العربي بن مهيدي، أمّ البواقي، الجمهورية الجزائرية.

7. عفيفي، أبو العلاء، (2020)، *التصوف الثورة الروحيّة في الإسلام*، مؤسسة هنداوي.

8. غازي، عبدالصمد، *التراث الصوفي وسؤال التحقيق والتحقق*، دراسة، موقع الرابطة المحمديّة للعلماء، المملكة المغربية، تاريخ النشر: (2014/8/11)، تاريخ الدخول: (2026/2/7)، الرابط: https://www.arrabita.ma

9. الفقيه، أحمد إبراهيم، (1991)، *الثلاثية، (هذه تخوم مملكتي)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

10. الفقيه، أحمد إبراهيم، (1999)، *حقول الرماد, دار الشروق*, القاهرة، (ط1).

11. الفقيه، أحمد إبراهيم، (2000)، *فئران بلا جحور*, دار الهلال.

12. الفقيه، أحمد إبر اهيم، (2008)، *خرائط الروح، (أفراح أثمة)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

13. الفقيه، أحمد إبراهيم، (2008)، *خرائط الروح, (عارية تركض الروح)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

14. الفقيه، أحمد إبراهيم، (2008)، *خرائط الروح، (هكذا غنّت الجنّيات)*، رياض الريس للكتب والنشر, (ط1).

15. الكلاباذي، أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري، (1434)، *التعرف لمذهب أهل التصوف*، (تقديم، ابن الصديق، عبدالمنعم بن عبدالعزيز)، (تحقيق، الطيب، محمد عبداللطيف)، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1).

16. ابن منظور، (1999)، *لسان العرب*، (تحقيق، عبدالوهاب، أمين محمد، والعبيدي، محمد الصادق)، (ج15)، (ط3)، دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت.

منيب، فاروق، (1966)، *(البحر لا ماء فيه)*، مقال، صحيفة الجمهورية، القاهرة.